# أنت موسيقاي.....
# أو هذا البياض المحنّك

**مرواة**

◆ د. عمّار أحمد / الموصل

يكاد يكون مسدوداً بوجه طفولتي المزركشة بالحلويات، المفخخة بالتهيؤات الأسطورية، باب لكش. ولن أعود إليه مؤنقاً بصحبة الـ (العسل).. (عسل) ي التي تعرفون، أنثاي التي تكاد تشبهها موسيقا النبوغ. لكني سأطرق بالكف المعدني المقلوب على شارة قدم الباب الصدئة على صدره، لأرتب الهدوء المترب المنسي في أيامي، والممرات التي يؤدي إليها بفوضى شبابي هذا. وألوّح لأسراب الأيام العالقة بأسلاك الغياب الشائكة، وتلك المتعثرة بخنادق الإياب الشقية، الشقَية، الأيام التي تلطخ تاريخها بجرائم رفض الحرب، واقتحامها حقول صمت الألغام وحرمانها ديمومة نعمتي الهدوء والاختفاء. سألوح لها بحب نصف بريء وأدعوها للمّ جراح الشمل.

أنا .. هو الذي كاد يرشق أمانيه .. نفسه، سميّ ولعه بما لا يعجب واقفين في طريق يمر – مر من تحتهم لأنهم آثروا الوقوف وراح يبحث عن ماشين ليقف . ويحهم من واقفين، ويا له من طريق– ولست ذكياً بما يكفي ولكن الريح تشبهني، لذا سأظل شاسعاً ومسدوداً معاً، شاسعاً لأستطيع الإحاطة بطموحي وخساراتي المؤثّلة والتماعاتي وموسيقاي وبريق عينيها.. آآآه ومساحة تحركي الغيمية ، ومسدوداً بوجه الطالب الكسول ، حفاظ العناوين ، العاطل عن الأسطورة ونشاطات أخرى السارق ، الكذاب ، الخامل في زمن الركض ، أشباهه ، وأساتذته (بكل تأكيد) وتابعيه ، ونماذجه العليا جميعاً ، أولئك الذين لا فرق بينهم وبين المكلفين بحراسة باب الجامعة بعد إلقاء المحاضرات ، وحراسة بوابات المدن أو نساء سوائل البيوتات . أولئك.. نعم .. الذين وفرت لهم مهنة الحماية مناخاً نادراً للسرقة، وتعطيل مرور الخارجين / أنا الخارج دائماً يا داخلون لتستقروا / مع أني لست مثقفاً مثل كبرياء شعاع منفلت من سماء الغيم تماما .. أحياناً. فأنا معروف هنا في هذه المدينة، بأن أفكاري حدباء مثل أحد أسمائها، وأني حريص جداً على استقامة آثامي، واعوجاج طرائقي في بلوغي سدة الكلام. فلا حرج عندي ولا ملام. ولا ملام. سمعت البارحة أن لصوصاً حاولوا سرقة صندوق وضعه مالكه خلف الباب ليعرقل فتحه، بعد أن عزز استحكام الدار، وكان مطمئناً تماماً لمنعة الباب وركنيه فنسف اللصوص الدار كلها ليصلوا إليه . ظل الباب واقفاً مع الركنين والقوس الرابط فقط.. كان باباً منيعاً حقاً، وغابت الدار كلها في حديقة الركام / أورد هذا المقطع من أجل تلطيف الجو.

لست قوياً بما يكفي، ومع هذا سأضرب بالكف المعدنية شارة باب الحكمة أيضا، لأفتح رأسها ، وأكاسر الحكماء والبلغاء المغلّفين بغبار المتاحف والسنين المتراكمة كلها .. كلها. فالمجد للآلة في السماء المذبوحة بشخير الطائرات، والنصر للغة القوة –في الأرض– على قوة اللغة يا حشود الذين يستعدون

للقدوم إلى الماضي القريب / والعجائز ما زلن يرتقن ما تشقق من طفولاتنا و (أياماتنا) اللامعة بالشباب والجروح، وما زلن يدرأن عنا الشظايا والخطايا بتمتمات ونفخ دائري . يا أمهاتنا اللاتي يطبخن لنا كل يوم أكلاً وكل سنة أخاً وكل عقد قتيلاً -كل منكن على حدة طبعا - يا انكساراتنا وحسراتنا ونحن نرى فرح الطحالب ينتشر على أعمارنا التي تجري حافية في مضامير الشمس، وينتشر الفرح ذاك، هذا الصمت بينما تسيح لغته ، ويسودّ في حلوقنا الكلام / ما زالت ابنة الجيران صغيرة جداً مع أن القصف توقف منذ عشرين عاماً . كان عمرها أربع سنوات فقصف الصاروخ طريقها إلى البيت والبلوغ ، وظلت هناك عند عام . 1982رأيتها في 2003مثلاً، جاءت صغيرة ومجعدة من طول انتظارها أباها الذي قد يفلت من قبضة الفقد. لكن القصف لعب معي دوراً معاكسا، لأنه قفز بي إلى عام 2004مثلاً، فكان مساره اختصاراً للطريق إلى الكهولة. (إييه لماذا كلما أوقدنا فرحاً أطفأته الأخطاء الملساء) .

باب لكش أيضاً يلعب دوراً معاكساً - هكذا أريد أن أتخيله أنا - أحياناً ينغلق بوجه طفولتي وينغلق على طفولتها بخريفها الرابع / وجدّي ما زال يسير في تلك (العوجات) باستقامة مدعومة بالصلاة والصوم وعدم الاختلاف مع السلاطين.. ما كان يعلم - ولن يعلم لأنه مات - أن تكاتف البيوت وتراصها، وتحدب العوجات والتواءاتها كانت بسبب الخوف والبرد. وأن ضيقها هو ضيق الحال/ يا جدي / وان للسلطان صالات فارهة مؤثثة بالسعادة كلها، سعادة مناخها برد ناعم ودفء، ودف يلعلع كلما اهتز ردف، وطرقاً واسعة مبعثها الأمان .. إليه، وأن دمه أحمر .. والله يا جدي... إن دم السلطان أحمر مثل جريان أيامي.

ها أنا أتحرك بقوة أربعين عاماً لأصل إلى نهار قبل حلول الظلام، سأصله وإن كلفني الأمر أن أطور مقدرتي في الحركة إلى طاقة ( (60 عاما. عندها سأمنع الأمهات من خدمة المذابح / الخدمة في المذابح، وأدندن على شعاع عاطر فرحي بما آل إليه الحال، وأمسح من قاموسي الـ (ربّمات) والـ (لعلاّت) وأنحت من غيمة حلماً يؤرخ، ولكن لعب الأطفال المحمول على الضجيج يدفعني إلى زجرهم قاطعاً خلوتي في هذه الغرفة المخنوقة بتدخيني، المحقونة بتدجيني المهارة على اقتناص التافه وتكريمه- الذي يعني تكريمي مع الأسف- وشكراً للانتزاع / فضيق ملعب الأطفال الطولي الذي وسع ضيقي وانحناءاته يذكرني بممرات أيامي المحتمية من أسراب الشظايا / وجدتي تقتعد فراغ عتبة الباب؛ لأنها ماتت مثل زوجها، ولكن تخويفها إياي بحرماني من رؤية شيخ الشط ما زال حياً. كنت أجلب لها (كيس استراحة التبغ) و (طاسة ماء الحب، أو طاسة حب الماء) وأزخرف لها عزلتها بما ألثغ وأرسم لها بألوان ما أتخيل لوحات تحبها، وأخلق لها أساطير طرية مثل لغتي فتفرش بدورها طريقي إلى النوم بالقبلات والأمان وتعدني بأخذي إلى شيخ الشط كل يوم وإعطائي آخر بناته وأصغرهن وأجملهن، بناته اللاتي أعطى تسعاً منهن لقادة حرس أبواب الموصل وترك العاشرة لي، كنت أنصت لتخويفها وأقلق .. والآن أتذكره وأغرق.. فيما صار سعادة غائبة مثل غياب كتمانها الضحك الحنون وإعلانها القبل، كنت أفهم، لا (ماما أوم) تلك التي خشيت عليّ من (الجوائح !)في وقت مبكر. هي تلك التجاعيد الجميلة جداً، ما كنت أعلم أن باب لكش سيؤدي إلى (باب نركال) بعد سنين بطريق يناور بوابة الموت، وتل الحب المنيشن بالبيبون والطرق النحيفة التي نحتها العشاق على مدى آلاف السنين، تلك المسارات المعبأة بأحاديث خاصة جداً تعالجها الفتيات المتمنعات بابتسامة خجولة بوجوه البيبونات. يعالجنها وهن مستنفرات سماعا ملهوفاً وملفوفاً بأدبهن المثير. صراع أزلي بين الطين والجدب من جهة، ومسارات الحب النحيفة تلك من جهة أخرى. وإذا ما دخلت الحرب طرفاً ضدها، كانت الغلبة لها فضلاً على المداهمات و (الكبسات) الإرهابية ضد المواطنين الآشوريين، وكانت تسحق كل شيء، لهذا كان الآشوريون يخبئون أطفالهم وأحلامهم في تجاويف سرية يبنونها من فراغ القطع المرمرية التي يبنون منها / بها بيتهم لتحميهم من فيضان دجلة وفيوض الغزاة من الخارج والداخل / طراز توارثه سكان نينوى على مر العصور للأسباب ذاتها / ومنهم

من نحت الثيران المجنحة على جدران بيته من الداخل متعوذاً من شرور القدر والقادرين من البشر في ظاهر الأمر، ومحصناً أمواله أو ألواحه في بطن الثور، لذا كان يوصي النحات بنحت بطنٍ كبير لثور البيت، ويخفي عليه هدفه من هذا الطلب متحججاً بملء التجويف بأكبر عدد ممكن من تعاويذ الكهنة – والنحاتون المعتمدون كانوا خطرين يا جماعة!!!- التي ستحمي الملك والملكة وتدفع المملوكين إلى قتال يوفر أماناً عظيماً يديم لذائذ الملك العلنية، ولذائذ الكهنة السرية، ويؤمن اتصالاً سهلاً بالسماء / مصرة على الحياة طرق العاشقين المنيسمة تلك ، يدحرها الشتاء والمحاربون راجلين و(معربنين) ، ويتخلى عنها صناعها بانشغالهم بخبز الأمن، وأمن الخبز أحياناً كثيرة من تلك القرون ، ويمنحها الربيع خطوطاً في خضرته ، منسقاً الشقائق ، ومبعثراً لطافة البيبون عطراً يتراصف ويبتسم على طولها ، ويستقيم باستقامتها ، وينحرف بانحرافها ، ولا ينحني / التراصف / والتبعثر إلا لتلك النسائم التي تجبر الدهشة على الابتسام / يفتح باب نركال طريقاً واسعاً ويؤديان إلى فضاء بطابقين الأول أخضر يرصعه التراصف والتبعثر بألوان تنشد ، والثاني أزرق تفتح عابرات السبيل من قطع القطن الدائب فجوات في زرقته ومجالاً لأسئلة ومجاهيل . تل الحب الآن يعلن الأكلات ومرح الأطفال، ويتكتم بأمان وشرود مذهلين على بقايا عظام محاربين، وبقايا ملوك عظام، وأختاماً وسيوفاً وأمنيات تورمت حزناً على عدم اكتمالها بسبب تلك الحروب / قد يكون سبب تحدبه ورمها / وأرى الآن نساء يفضن بجحيم بض وموسيقا أراها بعيني تتآلف وتتآلف على سفحيه، وأرى وردات يقفن على بوابات أنوثتهن يفشل حياؤهن بكبح رغبات زوايا عيونهن بالاطمئنان على إعجاب قد يلمع.

على التل وردات وموسيقا تسيح بعذوبة، وفي القلب أنثى، تلك التي نسيت صورتها وعدت ناسياً اسمي ودمي في الباص الذاهب إلى ساحة المهاجرين قادماً من سقف السيل. وجدتها كما هي مبتسمة، وسواد عينيها المتفائل يحبس آخر الكلام المؤنث بالبكاء، وكأنها كتبت تواً على ظهر الصورة.

إياك ونسيان (عسد) كَ. أي مرارة؟! انشغالي بك إنساني غربتي هذه / هكذا بررت عثرتي وبررت بحبي. وحين عدت، رأيت باب لكش، وتل الحب، والأبواب الأخرى التي تؤدي إلى الموصل قلب نينوى الأبيض المشطور بالماء، صافنين، لأن المدينة صارت ذهولاً محمولاً على أعمدة الدخان التي ما تفتأ تتفلطح في نهايات وكأنها تلامس حداً فاصلاً يوقف امتدادها إلى أعلى ويبعثرها مفسحاً المجال لضوء تثاؤب الشمس. ليس له الآن سوى رغبته في الاستمرار على هذا النحو من التعب البهيج. عليه أن يحافظ على هذه العزلة؛ لأن ثمة أطفالاً دائماً يلعبون بكل شيء، ليس بأعصابه حسب، ولأن التجاعيد الجميلة تستقطب (القشابات) اللاتي يسألن الله حسن تأجيل الختام في نهاية كل زيارة؛ لأنهن يسبقن – في الحقيقة – كل دعاء بطول العمر، ولأن عوجة الشيخ (أبو العلا) ممر حيوي في باب لكش الذي ينفتح على الموصلين القديمة والجديدة .. ولا ينفتح على طفولته المؤثثة بالأمان وغياب فكرة الموت .. إييييه كانت موسيقا تشبه حبيبته التي ستأتي- طبعاً- (عسل)، والاختلاف بالمقام وتدرج البياض..

... كنتــــــه إلى الأبد.

2003

❖ الاثرياء والفقراء: قد لايختلفون الا في البؤس البايولوجي.

❖ الحرية عند القدماء: هي الفساد. اليوم هي جوهر الانسانية.

❖ التلقين: تربية الحيوان في الانسان.

السعادة .. ادريس طه حسن